في أعماقه تقبع الكنوز.. لكنه لا يرى منها غير البريق!

كون يهجع في الإنسان

أثر غروب ذات يوم، وفي أثناء مساء هادئ في قرية تربض على كتف الجبل وتطل على الوادي السحيق، اجتمعنا برفقة المعلم، حيث سرح بأبصاره في البعيد البعيد بما يفوق التمتع بالمنظر الخلاب... بدا صامتا بعمق، ومقدراً بجلال، بدا كأولئك الذين يستقرئون ما يخطه الغيب في مجهول الفضاء الكامن بين الطبيعة والسماء.

طال صمته وطال سكوتنا، وإذ فجأة انتبه إلى وجودنا، فعاد إلينا وانبرى احدنا بالسؤال:

«متى تنتهي سلسلة المحاضرات العامة والخاصة؟»

«حين تتوقف الحياة»، كان جوابه.

ثم سألته بدوري: «هذا الإنسان الذي ما فتئت تتكلم عنه منذ ما يفوق العقدين من الزمن، تشرحه وتشرّحه باطناً وظاهراً، في المؤلفات والمحاضرات والأحاديث والمقالات العامة والخاصة، ألم تتوصل بعد إلى الإلمام به كاملاً؟»

«ما دامت المعارف الجديدة تصلك على الدوام فأنت لم تلمّ به، بإنسانك بعد! أليس هدف سلسلة علوم الإيزوتيريك هو الإنسان دائما وأبدا؟ أليس الإنسان محور الحياة ومحور الكائنات والخليقة جمعاء، فبقدر معرفتك بالإنسان تعرف كل ما حوله وكل ما يعتريه ويساوره... أولم تحسُّن المعرفة المكتسبة من مكانتك وعملك وتربية أطفالك وحياتك الخاصة والعامة والاجتماعية و... و... الخ.

«بلى، بلى، من دون شك. لكن اتفقنا جميعاً في هذه الجلسة الهادئة أن نستمع إلى الجديد عن الإنسان...»

«إذا كنتم قد مارستم القديم الذي اطّلعتم عليه، فتوصلوا بأنفسكم إلى الجديد».

«ما توانينا عن الممارسة، لكن بقدر طاقة وعي كل منا. وما ألذ جلسات المعرفة التي تقدم الجديد الذي غفلنا عن التنبه إليه وهو في متناول تفكيرنا! فما هو جديد هذه الأمسية القمرية عن الإنسان؟»

سرح المعلم بأبصاره في البعيد. ثم بدأ الكلام من دون أن يرف له جفن وكأنه ينطق بما يتناهى إلى مسامعه... أو كأنه يقرأ على صفائح الأثير ما خط بأحرف من نور ريما... والجميع في حالة استماع مذهل، وإنا أدون بسرعة غير مألوفة كلمات المعلم النابضة فكرا وحقيقة وصوتاً رخيماً متفاعلاً مع السرد:

«عالم صغير هو... لكنه يحوي كوناً كبيرا!

فيه المتناقضات... لكنه يحوي الوحدة!

في أعماقه تقبع الكنوز... لكنه لا يرى منها غير البريق!

هو الإنسان...

يحوي الطبيعة بكل أنظمتها وطاقاتها...

لكنه عاجز عن فهم نفسه، وعن فهم الطبيعة وقوانينها.

يتضمن من كل طبيعة جزء... ومن كل ميزة لمسة... ومن كل وجود همسة!

هو في الكل، والكل فيه!..

هو الإنسان...

من الطير فيه سرّ طيرانه وارتفاعه... لكنه مقيّد إلى الأرض ومادياتها!

من الأسد فيه عنفوانه، ومن النسر شموخه... لكنك غالبا ما تجده يتّضع أمام المادة وشهواتها!

من الزهر فيه رقته وأريجه... لكنه غالبا ما يجهل معنى الرقة ومعنى التألق!

من البحر فيه عمقه وشفافية مياهه... لكنك غالبا ما تراه سطحي المرام، مادي الهدف!

من الجبل فيه صموده وقمته... لكن غالبا ما تراه ضعيف البنية، فاتر العزيمة!

من النيران فيه تأججها وحرارتها... لكنك غالبا ما تراه بارد الطموح، جامد التقدم!

من الريح فيه إصراره وعزمه... لكنه غالبا ما تراه واهن الإرادة، قليل الثبات!

من الشمس فيه عطاؤها ودفؤها... لكنك غالبا ما تلقاه أناني الشعور، موحش القلب!

من المعرفة فيه اتساعها وشموليتها... لكنه غالبا ما تراه ضعيف التفكير، محدود الأفق!

أليس غريبا هذا الكيان - الإنسان؟ يحوي الكل لكنه غالباً ما يظهر صفاته السلبية ويخفي الإيجابية.

ما باله لا يطلق جناحي الطير الذي يهجع في أعماقه؟...

ما باله لا يحرر الخير والشموخ والعزيمة والمحبة من سجون نفسه المادية؟

لم لا يعتق الكل من قبضة الواحد؟... فيظهر الكل في الواحد، والواحد في الكل!

أيعقل أن ملك المخلوقات جمعاء فضّل التنازل عن عرشه والتخلي عن صولجانه؟ لكن لماذا؟ لمن؟!

أمن أجل المادة أو الفراغ؟... السلبيات، أم الظلام؟!

أيعقل أن هذا الملك، القادر على كل شيء، ومالك كل شيء، يتنازل عن عرشه ومقدراته وطموحاته؟

ما السبب؟ وإلى متى سيستمر هذا العصيان على القانون، وعلى الطبيعة، وعلى الكل في الواحد؟!

وهل يشن الحرب على ذاته الخيّرة؟... ويقمع صفاته الإيجابية وميزاته الإلهية؟!

لكن لم هذا العمل؟ لم هذا البُعد عن الذات؟ لا بل لم الكفر بالقوانين الإلهية والطبيعية؟!

غريب أمر الإنسان! فهو يملك كل شيء ويفتقر إلى كل شيء!

غريب أمره... يحوي كل شيء ويحس بعداً وافتقاراً إلى كل شيء!

لكن، إلى متى؟!

ويتفجر الجواب صرخة من الأعماق: إلى أن يشرق المستقبل القريب، مستقبل عصر النور والمعرفة، فتنتهي سلطة الإنسان الغافل ويبدأ سلطان الإنسان العارف الواعي، مجد إنسان المستقبل البهي.»

أنور سمراني
www.esoteric-lebanon.org
asamrani@hotmail.com